((إن لم تنفروا للجهاد خفافاً وثقالاً يستبدل الله غيركم
وإن لم تنصروا رسوله فالله ناصره كما نصره في الهجرة))
الآيات (٣٨ ــ ٤١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٣٨)

ما لكم : أي شيء أمْرُكم(١) .

إذا قيل لكم انفروا : إذا قال لكم رسول الله محمد انفروا أي اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم . وأصل النَّفر مفارقة مكان إلى مكان لأمرٍ هاجه على ذلك ، ومنه نفور الدَّابَّة ، غير أنه يقال من النفر إلى الغزو : نفر فلان إلى ثغر كذا يَنْفِر نفراً ونفيراً(٢) .

اثَّاقلتم إلى الأرض : تثاقلتم إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها ، أدغمت التاء واجتلبت همزة الوصل ليتوصَّل إلى الكلام بها(٣) .

من الآخرة : عوضاً من نعيم الآخرة(٤) وبدلاً من نعيمها(٥) ضمَّن « رضيتم » معنى استعضتم(٦) .

تخاطب الآية الكريمة الذين آمنوا وتناديهم وتسألهم منكرةً عليهم : ما لكم وأي شيء جرى لكم ودهاكم حتى إنكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله تعالى وهبُّوا سراعاً إلى الجهاد في سبيل الله تعالى واتركوا أماكنكم وفارقوا أوطانكم من أجل القتال لإعلاء كلمة الله تعالى تثاقلتم إلى الأرض وقعدتم واتجهتم إلى التراب ولصقتم به . ويزداد الإنكار ويتأكد التوبيخ بسبب همزة الاستفهام في القول « أرضيتم »(٧) والمعنى : أرضيتم أيها المسلمون بمتاع الحياة الدنيا الزائل ومتاعها الرخيص بدلاً من نعيم الآخرة المقيم الذي أعدَّه الله تعالى للمجاهدين في سبيله جل وعلا وللشهداء السعداء !

وتقرر الآية الكريمة أن متاع الحياة الدنيا بالقياس إلى متاع الآخرة قليل ، فعلى المؤمن

---

(١) تفسير الطبري ١٠/٩٣ .
(٢) تفسير الطبري ١٠/٩٣ .
(٣) انظر تفسير الطبري ١٠/٩٤ والجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٢٨٩ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/٩٤ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٥٧ والجلالين .
(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٢٨٩ .
(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٢٨٩ .

أن يجاهد في سبيل الله تعالى وأن يشتري الآخرة بالأولى ، وأن يؤثر نعيم الآخرة الدائم المقيم على متاع الأولى الزائل القليل .

وهذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحَمَارَّة (شدة) القيظ[١] وغزوة تبوك بعد الفتح وبعد الطائف وبعد حنين[٢] .

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣٩)

إِلَّا : إن حرف شرط جازم . لا : نافية[٣] وأدغمت في نون إن الشرطية[٤] .

تحذِّر الآية الكريمة الذين تقاعسوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ بأنهم إن لم ينفروا إلى الجهاد وإن لم يستجيبوا على الفور لنداء المصطفى ﷺ بقتال أعداء الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى سوف يعذبهم عذاباً شديداً ويأخذهم أخذاً أليماً ، وسوف يستبدل بهم قوماً غيرهم يحبّهم جل وعلا ويحبونه أذلَّةٍ على إخوانهم المؤمنين أعزة على أعداء الله تعالى المشركين يجاهدون في سبيل الله تعالى ولا يخافون في ذلك لومة لائم . وإن أولئك الذين استبدل الله تعالى بهم سواهم والذين استغنى الله تعالى عنهم لن يضرُّوه جل وعلا في شيء ، لأن الله سبحانه وتعالى القدير على كل شيء هو الغني ، أما عباد الله تعالى فإنهم هم الفقراء إليه جل وعلا .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٥٧/٢ وانظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري ٢٨٣ .
(٢) تفسير الطبري ٩٤/١٠ .
(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٩٠/٥ .
(٤) الجلالين .

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

ثاني اثنين : يقول : أخرجوه وهو أحد الاثنين أي واحد من الاثنين . وكذلك تقول العرب : هو ثاني اثنين يعني أحد الاثنين ، وثالث ثلاثة ورابع أربعة ، يعني أحد الثلاثة وأحد الأربعة[١] .

إذ هما في الغار : إذ رسول الله ﷺ وأبو بكر رحمة الله عليه في الغار . والغار النقب العظيم يكون في الجبل[٢] والمراد غار جبل ثور الذي لجئا إليه ثلاثة أيام[٣] ويقع إلى جنوب مكة المكرمة ثم اتجها شمالاً إلى المدينة المنورة .

تخاطب الآية الكريمة المسلمين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وتبين لهم شيئاً من قدرته جل وعلا التي نصت عليها الآية الكريمة السابقة . إن الآية الكريمة تقول للمتخلفين عن رسول الله ﷺ : إنكم إن لم تنصروا المصطفى ﷺ في غزوة تبوك وساعة العسرة فإن الله سبحانه وتعالى قد نصر حبيبه ﷺ في ساعة أشد عسرة حين أخرجه كفار مكة وقد تآمروا عليه ﷺ وهو في بيته بأن يأسروه أو يقتلوه أو يخرجوه فأوحى الله تعالى له بمكرهم وأذن له في الخروج وفي الهجرة فاتجه عليه الصلاة والسلام في صحبة أبي بكر رضي الله عنه إلى غار ثور في جنوب مكة . وهنالك مكثا ثلاث ليال حتى يئس الكافرون من إدراكه عليه الصلاة والسلام وخفّ الطلب فاتجه عليه الصلاة والسلام بصحبة أبي بكر إلى المدينة المنورة وهي إلى شمال مكة . ومن البين أن النبي ﷺ قد اتجه إلى غار ثور جنوباً بينما هو يريد المدينة المنورة شمالاً بقصد تضليل كفار قريش وتشتيت انتباههم ، وقد تفرقت

---

(١) تفسير الطبري ٩٥/١٠ .
(٢) تفسير الطبري ٩٥/١٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٥٨/٢ .

بالمشركين السبل .

وحينما كان المصطفى ﷺ في الغار مع أبي بكر وصل المشركون المتتبعون آثارهما إلى فم الغار . وإليك هذا الحديث الذي رواه أحمد والبخاري ومسلم أن أبا بكر رضي الله عنه قال : قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . قال : فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما(١) إن الآية الكريمة تصوّر هذا الموقف العصيب والمشهد المهيب . إن المصطفى ﷺ يرد على أبا بكر قائلاً : لا تحزن إن الله معنا .

إن المصطفى ﷺ ينهى أبا بكر عن الحزن ، والحُزْن والحَزَن خشونةٌ في الأرض وخشونةٌ في النفس لما يحصل فيه من الغمّ ويضادّه الفرح(٢) وإذا كان الحزن متعلقاً بالأسى لما مضى وانقضى ، وكان الهمّ ، وهو الحزن الذي يذيب الإنسان(٣) لأنه كأنه لشدته يَهُمّ ، أي يذيب(٤) متعلقاً بالمستقبل فإن نهي المصطفى ﷺ أبا بكر عن أهون الشيئين ، وفي ذلك نهي ضمني عن أشدهما وهو الهمّ ، هذا إلى أن النهي عن الحزن إنما يتعلق بما وقع لهما فعلاً وصادفاه من كفار قريش . أما ما يتعلق بالمستقبل فإن المصطفى ﷺ لا يشير إليه . وفي ذلك درسٌ لنا نحن المسلمين في وجوب التسليم الكامل لكل ما يكتبه الله سبحانه وتعالى لنا وقد قال تعالى(٥) : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا تُرْجَعون ﴾ والابتلاء بمعنى الاختبار .

وكيف لا يكون الحزن منفياً وإن الله سبحانه وتعالى معهما وثالثهما .

أما وقد ذهب الحزن المتعلق بما مضى وانقضى وكان التوكل التام على الله تعالى فقد كان منه جل وعلا الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء إنزال السكينة والطمأنينة عليه ﷺ وتأييده عليه الصلاة والسلام بالجنود التي لم يرها المؤمنون وهي الملائكة . وكانت النتيجة أن جعل الله تعالى كلمة الذين كفروا ، أعني الشرك ، السُّفلى ، وكلمة الله ، وهي لا إله إلا الله(٦) العليا ، والله سبحانه وتعالى عزيزٌ في ملكه حكيم في صنعه .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٥٨/٢ وانظر صحيح البخاري ٨٣/٦ .

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني « حزن » ١١٥ .

(٣) مفردات الراغب الأصفهاني « همم » ٥٤٥ .

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس « هم » ١٣/٦ .

(٥) سورة الأنبياء ٣٥ .

(٦) تفسير ابن كثير ٣٥٨/٢ .

﴿ انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١ ﴾

تأمر الآية الكريمة الذين آمنوا أن يهبّوا للجهاد في سبيل الله تعالى ، ومن أجل رفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ، بأموالهم ، وذلك بسبب أهمية المال في إعداد القوة وإيصال الرجال والعتاد إلى ساحة القتال ، وبأنفسهم ، لأن الجود بالنفس أقصى غاية الجود ، وينبغي أن يكون كلٌّ من النفس والنفيس رخيصاً في سبيل الله تعالى .

والآية الكريمة تأمر الذين آمنوا أن يهبّوا للجهاد في سبيل الله تعالى في كل الأحوال وفي كل الظروف ، خفافاً وثقالاً ، شباباً وشيوخاً ، أغنياء وفقراء ، ركباناً ومشاةً ، نشاطاً وغير نشاط ، وفي حال اليسر وفي حال العسر ، حينما يباغت العدو المسلمين وحينما يستعدّ له المسلمون ويأتون إليه من أماكن بعيدة ، وفي كل الأحوال .

إن المسارعة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى خير للمؤمنين من التثاقل والتباطؤ والقعود عن الجهاد وعن النَّفر .

((عَفْوُ الله تعالى عن النبي ﷺ إِذْنه للمنافقين في القعود عن الجهاد وبعض صفات المؤمنين وبعض صفات المنافقين))

الآيات (٤٢ ــ ٤٩)

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

لو كان عَرَضاً قريباً : قال ابن عباس : غنيمة قريبة[١] والعَرَض ما لا يكون له ثبات . وقيل : الدنيا عَرَضٌ حاضر تنبيهاً ألّا ثبات لها . وقوله : لو كان عَرَضاً قريباً : أي مطلباً سهلاً[٢] .

وسفراً قاصداً : وموضعاً قريباً سهلاً[٣] والقَصْد استقامة الطريق : يقال : قصدت قَصْده أي نَحَوْتُ نَحْوَه ، وقوله : وسفراً قاصداً : أي سفراً متوسطاً غير متناهي البُعْد . وربما فُسِّر بقريب ، والحقيقة ما ذكرت[٤] .

ولكن بعدت عليهم الشّقّة : أي المسافة إلى الشام[٥] والناحية التي تلحقك المشقة في الوصول إليها[٦] .

يهلكون أنفسهم : يوجبون لأنفسهم بحلفه بالله كاذبين الهلاك والعطب لأنهم يورثونها سخط الله ويكسبونها أليم عقابه[٧] .

تقرر الآية الكريمة أن المنافقين الذين تخلفوا عن المصطفى ﷺ في غزوة تبوك بسبب شدة الحر وبُعد المسافة لو علموا أنك أيها الرسول الكريم إنما تريد غنيمةً قريبةً سهلة ، وموضعاً غير متناهي البعد ولا تعترضه المشقات ولا تحفه المخاطر لاتّبعوك . وانظر إلى جملة « لاتّبعوك » التي تدل على موضع المنافقين المتأخر في القافلة ، وعلى ضعف همتهم ، وعلى اضطرارهم للاتباع والانقياد حتى في حال الغنيمة السهلة والموضع القريب .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٠ .
(٢) مفردات الراغب الأصفهاني « عرض » ٣٣١ .
(٣) تفسير الطبري ١٠/٩٩ .
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني « قصد » ٤٠٤ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٠ .
(٦) مفردات الراغب الأصفهاني « شق » ٢٦٤ .
(٧) تفسير الطبري ١٠/٩٩ .

وتبين الآية الكريمة السبب الذي من أجله تخلّف المنافقون وهو أن المقصِد بعيد ولا يُنال إلا بشقِّ الأنفس . وانظر إلى المظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال الإنباء بالغيب حينما يبين أن المنافقين حينما يعود المصطفى ﷺ من غزوة تبوك سيحلفون بالله العظيم معتذرين بالكذب لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم ولكن حبسنا العذر . ولما كان المنافقون كاذبين فإن الآية الكريمة يجيء فيها القول عن المنافقين ﴿ يهلكون أنفسهم ﴾ والمعنى أن المنافقين بسبب حلفهم بالله تعالى العظيم كاذبين إنما يوردون أنفسهم موارد الهلاك لأنهم ينالون بذلك غضب الله تعالى وسخطه . وتقرر الآية الكريمة في ختامها سبب إيقاع المنافقين أنفسهم في الهلاك وهو كذبهم في عذرهم وفي حلفهم . ومن الذي يعلم بكذبهم ويشهد وينبئ به ؟ الله تعالى الذي يعلم ما توسوس به نفس المرء : ﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ ﴿ ولا ينبّئك مثل خبير ﴾(1) .

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

ما ألطف هذا العتاب من رب العباد ذي الجلال والإكرام لحبيبه المصطفى ﷺ . إن عفو العزيز الوهّاب عن المصطفى ﷺ يجيء بين يدي عتابه ﷺ أن أذن للمنافقين الذين اعتذروا عن الذهاب إلى تبوك في جيش العسرة بأن يمكثوا في المدينة وألا يرافقوا الجيش في مهمته الصعبة . عن مجاهد . قال ناس : استأذِنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا(2) إن النبي ﷺ لو لم يأذن لهم في القعود وقعدوا بعد ذلك ثبت نفاقهم . أما وقد أذن لهم المصطفى ﷺ في القعود فذلك معناه أنهم اختلطوا بذوي الأعذار الصادقين في أعذارهم ونواياهم .

ما ألطف هذا العتاب وما أجمله حينما تبدأ الآية الكريمة بجملة عفا في صيغة الزمن الماضي ﴿ عفا الله عنك ﴾ والمعنى عفا الله عنك أيها النبي الكريم والرسول العظيم إذنك للمنافقين في القعود . وانظر إلى هذا الاستفهام اللطيف من رب العباد للحبيب المصطفى المختار ﴿ لِمَ أذنت لهم ﴾ ؟

---

(1) سورة فاطر ١٤ .
(2) تفسير الطبري ١٠/١٠٠ وتفسير ابن كثير ٢/٣٦٠ .

وسبق أن مر بنا في هذا الجزء عتاب الله تعالى للمصطفى ﷺ وللمؤمنين أخذ الفداء من أسرى بدر وعدم ضرب أعناقهم ثم بينت سورة الأنفال الكريمة على الفور أن الله سبحانه وتعالى قد أذن للمصطفى ﷺ وللمؤمنين في أخذ الغنائم وفي أخذ الفداء ، علماً بأن الآية الكريمة الرابعة من سورة محمد ﷺ قد نصَّت على أن أخذ الفداء من الأسرى يقع في الدرجة الثانية من الفضل بعد المنّ على الأسير بدون أخذ فداء . وكل ذلك دليل على أن النبي ﷺ إنما عاتبه ربه جل وعلا لأنه عليه الصلاة والسلام قد تجاوز الفاضل في تلك المرحلة إلى المفضول بدليل أن المفضول في غزوة بدر أصبح هو الفاضل حينما قويت شوكة الإسلام بعد ذلك .

إن الشيء ذاته يقال ههنا ، بل إن اللطف هنا أوقع والفضل أبلغ بسبب ابتداء الآية الكريمة بالقول : ﴿ عفا الله عنك ﴾ ومن الأدلة على أن العتاب هنا بسبب تجاوز الفاضل في هذه المعركة المصيرية في تاريخ الإسلام باعتبارها أولى المعارك التي قادها المصطفى ﷺ خارج الجزيرة العربية ضد الروم ، تجاوز الفاضل إلى المفضول ، أن المصطفى ﷺ قد أذن له الله تعالى في سورة النور أن يأذن في غزوة الأحزاب لمن شاء الذهاب من أفراد الجيش . قال تعالى[1] : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذنوه . إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله . فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله . إن الله غفور رحيم ﴾ .

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ
أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾
إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ
يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ

---

(١) سورة النور ٦٢ .

وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم
مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾
لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

إنما يستأذنك : إنما يستأذنك يا محمد في التخلف خلافك وترك الجهاد معك من غير عذر بيّن[١] وفي القعود ممن لا عذر له[٢] .

وارتابت قلوبهم : وشكّت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله وفي ثواب أهل طاعته وعقابه أهل معاصيه[٣] .

فهم في ريبهم يترددون : فهم في شكهم متحيرون ، وفي ظلمة الحيرة مترددون ، لا يعرفون حقاً من باطل فيعملون على بصيرة . وهذه صفة المنافقين (٤)

ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة : لأعدّوا للخروج عدّة ولتأهّبوا للسفر والعدوّ أهبتهما[٥] .

ولكن كره الله انبعاثهم : خروجهم لذلك[٦] أي أبغض أن يخرجوا معكم قَدَراً[٧] .

فثبّطهم : فثقّل عليهم الخروج حتى استخفّوا القعود في منازلهم خلافك واستثقلوا السفر والخروج معك فتركوا لذلك الخروج[٨] .

وقيل اقعدوا مع القاعدين : وقيل اقعدوا مع المرضى والضعفاء الذين لا يجدون ما

---

(١) تفسير الطبري ١٠/١٠٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٠ .
(٣) تفسير الطبري ١٠/١٠٠ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/١٠١ .
(٥) تفسير الطبري ١٠/١٠١ .
(٦) تفسير الطبري ١٠/١٠١ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/٣٦١ .
(٨) تفسير الطبري ١٠/١٠١ .

ينفقون ، ومع النساء والصبيان ، واتركوا الخروج مع رسول الله ﷺ والمجاهدين في سبيل الله تعالى(١) .

خبالاً : فساداً وضراً(٢) .

ولأوضعوا خلالكم : أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة(٣) وأصله من إيضاع الخيل والركاب وهو الإسراع بها في السير . يقال للناقة إذا أسرعت : وضعت الناقة تضع وضعاً وموضوعاً . وأوضعها صاحبها إذا جد بها وأسرع يوضعها إيضاعاً . ومنه قول الرَّاجز :

يا ليتني فيها جَذَع أخبّ فيها وأضع

وأما الخِلال فهو من الخَلَل وهي الفُرَج تكون بين القوم في الصفوف وغيرها(٤) .

يبغونكم الفتنة : يطلبون لكم ما تفتنون به عن مخرجكم في مغزاكم بتثبيطهم إياكم عنه . يقال منه : بغيته الشر وبغيته الخير أبغيه بُغاءً إذا التمسته له ، بمعنى بغيت له(٥) .

وفيكم سمَّاعون لهم : وفيكم من يسمع كلامهم ويطيع لهم(٦) .

لقد ابتغوا الفتنة من قبل : لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لأصحابك يا محمد ، التمسوا صدّهم عن دينهم وحرصوا على ردِّهم إلى الكفر بالتخذيل عنه ، كفعل عبد الله بن أبيّ بك وبأصحابك يوم أحد(٧) من قبل : من قبل هذا(٨) .

وقلّبوا لك الأمور : وأجالوا فيك وفي إبطال الدين الذي بعثك به الله الرأي بالتخذيل عنك وإنكار ما تأتيهم به وردّه عليك(٩) .

حتى جاء الحق وظهر أمر الله : حتى جاء نصر الله وظهر دين الله الذي أمر به وافترضه على خلقه وهو الإسلام(١٠) .

---

(١) تفسير الطبري ١٠١/١٠ .

(٢) تفسير الطبري ١٠١/١٠ وانظر أسباب نزول الآية الكريمة أسباب النزول ٢٨٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٦١/٢ .

(٤) تفسير الطبري ١٠١/١٠ .

(٥) تفسير الطبري ١٠١/١٠ .

(٦) تفسير الطبري ١٠٢/١٠ .

(٧) تفسير الطبري ١٠٣/١٠ .

(٨) تفسير الطبري ١٠٣/١٠ .

(٩) تفسير الطبري ١٠٣/١٠ .

(١٠) تفسير الطبري ١٠٣/١٠ .

عاب السياق من ذي قبل على المنافقين تقاعسهم عن الجهاد وكذبهم في اختلاق الأعذار وقرّر عفو الله تعالى عن المصطفى ﷺ الذي أذن لهم بالقعود عن الجهاد لأنهم كاذبون في أعذارهم ولأنهم مصممون على القعود في كل حال . وإن الآية الكريمة الأولى تخاطب المصطفى ﷺ وتقرر أنه لا يستأذن المصطفى ﷺ في القعود عن الجهاد الذين يؤمنون بالله تعالى ربًّا ، والذين يؤمنون باليوم الآخر يوم الحساب فالجزاء ، الثواب أو العقاب ، ولا يعتذرون عن الجهاد في سبيل الله تعالى بأموالهم وأنفسهم . ومن البين قيمة المال ودوره في الجهاد لأنه السلاح لمن أراد القتال ، وقيمة النفسُ التي تعتبر أغلى من المال . إن كلًّا من المال والنفس رخيص في سبيل الله تعالى . وتقرر الآية الكريمة في تذييلها أن الله سبحانه وتعالى عليم ، هكذا في صيغة المبالغة ، بالمتقين الذين يتقون الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي ، والذين يجعلون من أعمالهم الصالحة وقايةً لهم من عذاب الله تعالى ، وفي مقدمة ذلك جهادهم بالنفس والنفيس .

والآية الكريمة الثانية تقصر استئذانه ﷺ عن الجهاد في سبيل الله تعالى على الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا يؤمنون باليوم الآخر والذين ارتابت قلوبهم وملأ الشك أفئدتهم وعمرت الوساوس صدورهم فهم في ريبهم يترددون ، وفي شكهم يتحيرون ، وفي وساوسهم يتقلبون . وهذه هي صفات المنافقين التي تنحط عن صفات الكافرين سوءاً وقد انحطوا في نار جهنم عن درك الكافرين .

والآية الكريمة الثالثة تقرر أن أولئك المنافقين الذين يترددون في ريبهم وشكهم ، والذين يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى ، لو أرادوا الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى وعقدوا العزم على ذلك لأعدُّوا للخروج عدته ، وللجهاد أُهْبَتَه ، ولكنهم كرهوا الجهاد في سبيل الله تعالى ، وعزفوا عن ثواب الله تعالى للمجاهدين ، وآثروا العاجلة على الآجلة ، وحرصوا على حطام الدنيا الفاني ومتاعها الرخيص وقد بادلهم رب العزة كرهاً بكره . إنهم كرهوا الجهاد في سبيل الله تعالى وإن ربَّ العزة كره انبعاثهم للجهاد والخروج للقتال في سبيله فثبطهم عن الجهاد وثقّل عليهم الخروج فآثروا التخلف عن الجهاد واستخفوا القعود في منازلهم وقيل لهم اقعدوا مع القاعدين . وإن القول في الآية الكريمة : ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ يغرينا بالوقوف عند جملة قعد وقدرة هذه اللغة الشريفة على تبيين هيئة القعود مع تعيين اتجاه القعود من أعلى أي الوقوف . ومع أن هيئة القعود والجلوس واحدة فإن الاتجاهين مختلفان . القاعد يتجه من أعلى إلى أسفل ، بينما الجالس يتجه من أسفل ، كالاضطجاع ، إلى أعلى . إن المنافقين قد بيّتوا

النية على القعود وعلى التقاعس عن الجهاد ، وإنهم يقال لهم اقعدوا فعلاً مع القاعدين من أمثالكم المنافقين القاعدين قصداً النّاكصين عن الجهاد إصراراً .

والآية الكريمة الرابعة تبين أن تثبيط رب العزة المنافقين عن الخروج للقتال مع المؤمنين من مظاهر رحمة الله تعالى بالمؤمنين وفضله العظيم عليهم ، لأن غياب المنافقين خير من حضورهم ولأن شرورهم في حال مرافقتهم المؤمنين خالصة وأذاهم محض . إن الآية الكريمة تقرر أن المنافقين لو خرجوا في المؤمنين وهم كالسوس الذي ينتشر في الحب بقصد نَخره وإفساده ، ويلاحظ أن الآية الكريمة لا يجيء فيها القول : لو خرجوا معكم ، ولكن : ﴿ لو خرجوا فيكم ﴾ تقرر أن المنافقين لو خرجوا في المؤمنين ما زادوهم إلا خبالاً وفساداً ولأسرعوا في أثناء المسلمين بالدّسّ والوقيعة والوشاية ولشنوا على المسلمين حرباً نفسية قوامها الشائعات وبث الفرقة وتمزيق وحدة المسلمين ، وتثبيطهم عن الجهاد ، وفتنتهم عن الهدف السامي الذي خرجوا من أجله وصرفهم عنه . وليس بخاف الانسجام بين حرف الجر « في » وذلك في القول : ﴿ لو خرجوا فيكم ﴾ وبين ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ وكأن الجار والمجرور « فيكم » الدالين على انتشار المنافقين وإسراعهم فيهم موطئان للقول : ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ بمعنى ولأسرعوا فيكم بالدس والتثبيط عن الجهاد والوقيعة .

وتبين الآية الكريمة طبيعة بعض النفوس المؤمنة وذلك في القول : ﴿ وفيكم سمّاعون لهم ﴾ والمعنى : وفيكم سمّاعون لأقوال المنافقين متقبّلون لها مع ما فيها من بلاء . إن هذا الموقف من بعض النفوس المؤمنة يعود إلى طبيعة تلك النفوس المستعدة لقبول تلك الشائعات من ناحية ، ويعود من ناحية أخرى إلى مستواها المعيّن من الإيمان الذي يجعل تلك النفوس متجاوبة مع شائعات المنافقين .

وإن التذييل في الآية الكريمة ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ الذي يجيء على غرار التذييل في آية كريمة سابقة في القسم ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ يشير إلى ظلم المنافقين الكبير أنفسهم وسواهم ، كما يشير من طرف خفيٍّ إلى الظلم المحدود الذي تورَّط فيه متقبلو تلك الشائعات من المؤمنين .

والآية الكريمة الخامسة تبين أن ظلم المنافقين موصول ، فهم قد ابتغوا من ذي قبل فتنة المسلمين عن دينهم والتمسوا صدّهم عن دين الإسلام ، وقلّبوا للمصطفى ﷺ الأمور فكذّبوه ، وخذّلوا المؤمنين عنه ، وحالفوا الكافرين ضده في الخفاء بقصد القضاء على دين الإسلام . وشاء الله تعالى أن تسير الأمور بعكس ما تمنوا فجاء الحق بنصر الله تعالى نبيه

وبالفتح ، وظهر دين الله تعالى رغماً عنهم ورغماً عن كل قوى الشر ورغماً عن كرههم لمجيء الحق وظهور دينه جل وعلا .

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

سبب النزول :

نزلت في جَدّ بن قيس المنافق ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما تجهَّز لغزوة تبوك قال له : يا أبا وَهْب ، هل لك في جِلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووُصَفاء ؟ فقال : يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرمٌ بالنساء ، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر ألا أصبر عنهن ، فلا تفتنِّي بهن ، وائذن لي في القعود عنك فأعينَك بمالي . فأعرض عنه النبي ﷺ وقال : قد أذنت لك . فأنزل الله تعالى هذه الآية(١) وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم : من سيِّدكم يا بني سَلِمة ؟ قالوا : الجدّ بن قيس على أنَّا نبخّله . فقال رسول الله ﷺ : وأي داءٍ أدوأ من البخل ! ولكنّ سيّدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور(٢) .

كان رسول الله ﷺ قلّما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الذي يصمد له إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بيَّنها لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو(٣) هذا بالإضافة إلى أن المصطفى ﷺ قد أمن وصول خبر الغزوة إلى الروم بسبب بعد الشقة .

إن الآية الكريمة تقرر أن من المنافقين من يقول للمصطفى ﷺ ائذن لي في القعود عن الجهاد في سبيل الله تعالى ولا تفتنّي بنساء بني الأصفر اللاتي لا أصبر عنهن لو رأيتهن . إن العذر الكاذب الذي تذرّع به المنافق تحاشياً للوقوع في فتنة النساء قد أوقعهُ في فتنة أكبر حقيقية ، ألا وهي فتنة النفاق التي سقط في هاويتها هذا المنافق وأمثاله . وبما أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار فقد عبَّرت الآية الكريمة في جزئها الأخير بأن جهنم لمحيطة بالكافرين حقاً ، ومعروف أن المنافقين أسوأ من الكافرين لأن المنافقين يشتركون مع الكافرين في صفة الكفر وينحطون عن الكافرين بادعاء الإسلام من أجل إيذاء المسلمين والصد عن سبيل الله تعالى .

---

(١) أسباب النزول ٢٨٤ وانظر تفسير الطبري ١٠٤/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٦٢/٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٢/٢ وانظر تفسير الطبري ١٠٤/١٠ وأسباب النزول ٢٨٥ .
(٣) تفسير الطبري ١٠٣/١٠ .

((الحسنة تصيب المؤمنين المتوكلين على الله تسوء المنافقين المبغضين لهم ، والمصيبة تصيب المؤمنين تفرحهم ، وفرح المؤمنين بما يصيبهم في سبيل الله ، وعدم قبول نفقة المنافقين))

الآيات (٥٠ ــ ٥٧)

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ
أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل : أي قد أخذنا حذرنا بتخلّفنا عن محمد وترك اتّباعه إلى عدوه . من قبل ، يقول : من قبل أن تصيبه هذه المصيبة(١) .

ويتولّوا وهم فرحون : ويرتدّوا عن محمد وهم فرحون بما أصاب محمداً وأصحابه من المصيبة(٢) .

قلن لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا : في اللوح المحفوظ وقضاه علينا(٣) .

قل هل تربصون بنا : هل تنتظرون بنا(٤) .

إلا إحدى الحسنيين : إلا إحدى الخَلّتين اللتين هما أحسن من غيرهما ، إما ظفراً بالعدو وفتحاً لنا بغلبتناهم ففيها الأجر والغنيمة والسلامة ، وإما قتلاً من عدونا لنا ، ففيه الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار ، وكلتاهما مما يُحَبُّ ولا يُكْرَه(٥) .

تكشف الآية الكريمة الأولى حقيقة شعور المنافقين تجاه المصطفى ﷺ والمؤمنين وتقول : إن تصبك أيها الرسول الكريم والمجاهد العظيم حسنة في جهادك في سبيل الله تعالى ،

---

(١) تفسير الطبري ١٠/١٠٥ .
(٢) تفسير الطبري ١٠/١٠٥ .
(٣) تفسير الطبري ١٠/١٠٥ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/١٠٥ وتفسير ابن كثير ٢/٣٦٢ ومفردات الراغب الأصفهاني « ربص » ١٨٥ .
(٥) تفسير الطبري ١٠/١٠٥ .

مِنْ فتحٍ أو نصرٍ أو غنيمة وما إلى ذلك تسؤهم وتؤلمهم وتزعجهم . وإن تصبك أيها الرسول الكريم مصيبةٌ من هزيمة ـــ لا سمح الله ـــ أو قتل أو جراحٍ وما إلى ذلك يقولوا قد أخذنا حذرنا من قبل وأعددنا للأمر عدته بعدم مصاحبة محمد في مغامراته وبالقعود عن الجهاد ، ويرتدوا عنه ﷺ وهم فرحون بالتخلف عن الجهاد مستبشرون بالنجاة مما حل بالمؤمنين الصادقي الإيمان المجاهدين . ويلاحظ أنه لا يجيء لفظ سيئة الذي يقابل لفظ حسنة فلا يقال : وإن تصبك سيئة . إنما الذي يجيء هو القول : ﴿ وإن تصبك مصيبة ﴾ لأن الذي ينال المسلمين في جهادهم في سبيل الله تعالى ليس سيئة في نظرهم بحال من الأحوال ولكن مصيبة تصيبهم بأذاها بإذن الله تعالى ولا تخطئهم .

والآية الكريمة الأخرى تلقن المؤمنين الجواب الذي يقوله كل واحد منهم مما يتمشى كثيراً مع القول في الآية الكريمة السابقة : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾ وتأمر المصطفى ﷺ وكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية أن يقول للمنافقين : لن يصيبنا نحن المسلمين في جهادنا في سبيل الله تعالى إلا ما كتب الله لنا في اللوح المحفوظ ، هو ناصرنا على أعدائه[1] وسيدنا وملجؤنا[2] ومن البين أن هذا القول الذي يلقّنه المصطفى ﷺ والمؤمنون يمثّل قمّة التوكل على الله تعالى ، ولهذا ختمت الآية الكريمة بالأمر بالتوكل على الله تعالى بصريح اللفظ : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ولما كان القول السابق مما لَقّنه رب العزة حبيبه المصطفى ﷺ في المقام الأول ، فإن الأمر بالتوكل امتدادٌ لهذا التلقين ، وهو موجّه للمؤمنين جميعاً .

والآية الكريمة الثالثة تلقّن هي الأخرى المؤمنين الجواب الذي يقوله كل واحد منهم مما يتمشى كثيراً مع القول في الآية الكريمة قبل السابقة : ﴿ وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولّوا وهم فرحون ﴾ إن الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ وكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية أن يقول للمنافقين هل تنتظرون بنا إلا إحدى حالتين هما الأحسن من كل حالة سواهما وهما النصر أو الشهادة . ومن البين أن النصر منتهى ما يناله الأحياء من المجاهدين ، وأن الشهادة منتهى ما يناله الذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه وقضوا نحبهم ولقُوا وجه ربهم . إن كلًّا من النصر والشهادة منتهى ما يتمناه من كتب الله تعالى له الحياة أو الموت من المجاهدين في سبيل الله تعالى . ومن البين أن نصر المؤمنين يسوء المنافقين ، وأن استشهاد المؤمنين يُفرح المنافقين الشامتين ، وفي الوقت ذاته تفرح الشهادة المؤمنين ، بل

(١) تفسير الطبري ١٠/١٠٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٢ .

وتفرح الشهداء السعداء بنص القرآن الكريم[1] ما أعظم البون بين فرح المنافق الشامت وبين فرح المؤمن الوامق والشهيد الصادق .

وفي مقابل تربص المنافقين بالمؤمنين النصر أو الشهادة ، وهما مطلبان عزيزان للمؤمنين ، هنا تربُّصُ المؤمنين بالمنافقين أن يصيبهم الله تعالى بعذاب من عنده جل وعلا ، أو أن يصيبهم بعذاب بأيدي المؤمنين المجاهدين في سبيل الله تعالى .

ويُطْلب من المؤمنين أن يقولوا في لهجة الواثق للمنافقين : ﴿ فتربصوا إنّا معكم متربصون ﴾ إن المعنى المتبادر للذهن هو أن المؤمنين يقولون : فتربصوا بنا أيها المنافقون الدوائر فإنّا بكم متربصون . ولكن السياق لا يستعمل حرف الجر الباء إنما يستعمل الظرف مع الدال على الاجتماع أو المصاحبة . إن القرآن الكريم يؤدب المؤمنين بأدبهم فهم في تربص مع المنافقين الذين قد يتوب الله عليهم ، والذين قد يتحولون مؤمنين صادقي الإيمان . والمعروف أن سورة التوبة من آخر ما نزل على المصطفى ﷺ من القرآن الكريم ، والمعروف أن المصطفى ﷺ لم يلحق بالرفيق الأعلى حتى كان النفاق قد اختفى من الوجود أو كاد يختفي . وهكذا تحوّل كثير من المنافقين إلى صفوف المؤمنين المتربصين مع المنافقين الدوائر بالآخرين[2] .

قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

سبب النزول :

قيل إن هذه الآية الكريمة الأولى نزلت في الجدّ بن قيس حين قال للنبي ﷺ لمّا عرض عليه النبي ﷺ الخروج معه لغزو الروم : هذا مالي أعينك به[3] .

(١) سورة آل عمران ١٧٠ .

(٢) انظر هنا مثلاً فتح الباري ٨/٣٣٧ شرح الحديث رقم ٤٦٧٢ في عدد المنافقين وأنهم اثنا عشر رجلاً و ٣٢٣ شرح الحديث رقم ٤٦٥٨ الذي يبين أن عدد المنافقين أربعة على عهد حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

(٣) تفسير الطبري ١٠/١٠٦ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للجدّ بن قيس وأمثاله من المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله تعالى الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، وإن كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية تبعٌ له عليه الصلاة والسلام في هذا الأمر ، تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للمنافقين : أنفقوا أموالكم طوعاً واختياراً منكم أو كرهاً ورغماً عنكم لن يتقبّل منكم شيءٌ مما أنفقتموه لفساد نيّاتكم . وإن من شروط قبول الأعمال الصالحة أن يراد بها وجه الله تعالى وليس المنفعة الشخصية وحسن الأُحدوثة . وفي التذييل تعيّن الآية الكريمة السبب في عدم قبول الله تعالى نفقات المنافقين وهو أنهم قوم فاسقون خارجون عن الصراط المستقيم لفساد نيّاتهم وأقوالهم وأعمالهم على الحقيقة .

والآية الكريمة التالية تعتبر تبييناً للتذييل في الآية الكريمة السابقة وتعييناً لمقومات فسق المنافقين . إن الله سبحانه وتعالى منعهم أن تُقْبَلَ منهم نفقاتهم لأنهم كفروا بالله تعالى فلا يؤمنون به جل وعلا إيماناً كاملاً ، وكفروا برسوله ﷺ فلا يصدقونه عليه الصلاة والسلام بل يكذّبونه ، ولأنهم لا يأتون الصلاة المفروضة إلا وهم كُسالى متثاقلون لأنهم لا يرونها ركناً من أركان الإسلام ولهذا هم يأتونها ذرّاً للرّماد في العيون ، ودرءاً للخطر عنهم ، وكسباً لقلوب المؤمنين وعطفهم عليهم . وهم لا ينفقون في سبيل الله تعالى كغزوة تبوك وفي مجال الزكاة أو الصدقات إلا وهم كارهون لإخراج المال لأنّهم لا يرجون من إخراجه ثواباً ولا يجدون في منع حق الله تعالى منه حرجاً ولا يخافون عقاباً .

والذي يلفت النظر بشأن الآية الكريمة عن تقصير المنافقين في حق الصلاة أنه يجيء فيه جملة أتى ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ والمعروف أن جملة « أتى » لا تستعمل في القرآن الكريم إلا دليلاً على البعد الزماني أو المكاني أو المعنوي النفسي ، وأن جملة « جاء » لا تستعمل في القرآن الكريم إلا دليلاً على القرب الزماني أو المكاني أو المعنوي النفسي ، وما أكثر الأدلة على ذلك من القرآن ، وبخاصة حينما يجمع السياق في نسقٍ بين الجملتين معاً وذلك — مثلاً — على غرار ما جاء في الآية الكريمة من سورة الأعراف على لسان قوم موسى عليه السلام . قال تعالى(1) : ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ .

إن المنافقين لا يقال عنهم : لا يقيمون الصلاة ، ولكن يقال عنهم ﴿ ولا يأتون الصلاة ﴾ دليلاً على أن الصلاة البعيدة — والعياذ بالله — من قلوب من المنافقين حينما

---

(1) سورة الأعراف ١٢٩ .

يرغمون على أدائها هم بمثابة الذي يأتي من مكان بعيد أمراً شاقاً ثقيلاً على نفسه بغيضاً إلى قلبه . وإن التعبير هنا عن المنافقين بالقول : ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى ﴾ يذكّرنا بما جاء عن المنافقين في المعنى ذاته في الآية الكريمة الثانية والأربعين بعد المائة من سورة النساء . قال تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ إن المنافقين إذا قاموا إلى الصلاة بأجسامهم وإذا أتوها بأجسادهم وليس بقلوبهم ونفوسهم قاموا كُسالى . انظر في المقابل إلى الجملة التي يستعملها القرآن الكريم في حق المؤمنين الذينْ يقيمون الصلاة بأركانها وواجباتها وسننها وكل متطلباتها ومتعلقاتها في مثل قوله عز من قائل[1] : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

وتزهق أنفسهم : وتخرج أنفسهم[2] .

الآية الكريمة ذات علاقة بقوله تعالى في سورة الكهف[3] : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ﴾ وبقوله تعالى في سورة طه[4] : ﴿ ولا تمدّنّ عينك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خيرٌ وأبقى ﴾ إن الآية الكريمة تنهي المصطفى ﷺ ، وكل فرد من أفراد أمته عليه الصلاة والسلام تبعٌ له في ذلك النّهي ، تنهاه عن أن تعجبه أموالهم أو أولادهم ، لأن المال والبنين زينة الحياة الدنيا الظاهرة ، ومظهرها الخارجي البرّاق الخدّاع . وإنما أمدّهم الله سبحانه وتعالى بالمال والبنين مكراً بهم وكيداً لهم وقد قال تعالى[5] : ﴿ أيحسبون أنّما نُمِدّهم به من مالٍ وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعذّب أولئك المنافقين ، بما زيّنه لهم ومنحهم إيّاه ، في هذه الحياة الدنيا بسبب ما يلقون في جمع الحُطام

---

(١) سورة البقرة ٢٧٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٠/١٠٧ .

(٣) الآية ٤٦ .

(٤) الآية ١٣١ .

(٥) سورة المؤمنون ٥٥ ، ٥٦ .

من المتاعب وفيها من المصائب وتزهق أنفسهم وتخرج أرواحهم وهـم كافـرون فمصيرهـم النـار وبئس القرار والعياذ بالله .

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

إنهم لمنكم : في الدين والملّة(١) .

يفرقون : يخافونكم فهـم خوفـاً منكـم يقولـون بألسنتهم إنّـا فيكـم ليأمنـوا فيكـم فلا يقتلوا(٢) .

لو يجدون ملجأً : أي حصناً يتحصّنون به وحرزاً يتحرّزون به(٣) .

أو مغارات : وهي الغيران في الجبال واحدتها مغارة(٤) .

أو مدّخلاً : سَرَباً في الأرض يدخلون فيه(٥) ونفقاً(٦) وقال : أو مدّخلاً ، الآية ، لأنه من ادّخل يدّخل(٧) .

لولّوا إليه : لأدبروا إليه هرباً منكم(٨) .

وهم يجمحون : أي يسرعون في ذهابهم عنكم ، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبةً(٩) إسراعاً لا يردّه شيء كالفرس الجموح(١٠) .

---

(١) تفسير الطبري ١٠٧/١٠ .
(٢) تفسير الطبري ١٠٧/١٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٦٣/٢ .
(٤) تفسير الطبري ١٠٧/١٠ .
(٥) تفسير الطبري ١٠٧/١٠ .
(٦) تفسير ابن كثير ٣٦٣/٢ .
(٧) تفسير الطبري ١٠٧/١٠ .
(٨) تفسير الطبري ١٠٧/١٠ .
(٩) تفسير الطبري ١٠٧/١٠
(١٠) الجلالـين .

من وسائل تضليل المنافقين أن يظهروا استعدادهم للتبـرّع بأمـوالهم جهـاداً في سبيـل الله تعالى وقد كشفت الآيات الكريمات السابقات حرص المنافقين على تغطية نواياهم الخبيثة الحقيقية بأمثال هذه الاستعدادات لدفع الأموال بل وبدفعها فعلاً من باب التّقيّـة ولـذلك هي أعمال لا يتقبّلها الله تعالى . وإمعاناً من المنافقين في التضليل هم يحلفون بالله العظيم للمؤمنين بأنهم من المؤمنين وعلى ملّتهم . وتقرر الآية الكريمة الأولى هنا أن المنافـقين ليسوا من المؤمـنين ، وبالتالي هم كاذبون في حلفهم ، وتـكشف حقيقـة ما في نفوسهـم بأنهم قومٌ يفرقـون المؤمـنين ويخافـونهم على دمائهـم وأعراضهـم وأمـوالهم ولهذا هم يكذبـون في ادّعـاءاتهم للدرجـة التـي يقسمون معها بالله تعالى العظيم بأنهم صادقون .

والآية الكريمة الثالثة تقرر أن أولئك المنافقين المبغضين للمؤمنين الحريصين على الابتعـاد عنهم والنّأي عن ديارهـم لو يجدون تحقيقـاً لهذه الأمـاني حصونـاً يلجـأون إليها أو مغـارات في الجبال يفرّون إليها أو نفقاً في الأرض وسرباً لولّوا إليه ، ولأدبروا نحوه ودخلـوا فيـه وهـم يجمحـون مسرعين كما تسرع الفرس وتجمح . ومن اللطيف في الآية الكريمة ترتيب هذه العنـاصر الثلاثـة البديع ، الملجأ والمغـارات والنّفـق . إنـا لو تصورنـا حربـاً اضطـر فيها المنافقـون ــ مثـلاً ــ للهـرب ، فالمتبــادر إلى الذهـــن أن يلجــأوا إلى الحصون . فإذا دُكّت الحصون لجأوا إلى المغارات . ويلاحظ مجيء الملجأ بمعنى الحصن مفرداً لأنه مهيّأ أساساً كي يتسع للعدد الكبير من الناس ولفترةٍ تميل إلى الطّول بينما جاءت المغارات في صيغة الجمع لأنها مغارات في الجبـال طبيعية ، وتتفاوت حجماً ، ويتم الفرار إليها وقت الخطر الشديـد . ولـو فرض أن العـدو طارد فلول المنهزمين وتعقّبهم في المغارات فليس أمامهم سوى تمنّي أن يكون في الأرض نفـق يدخلـون فيه إلى الأعماق تباعاً . ويلاحظ مجيء النفق في صيغة المفرد لأنـه نفـقٌ وهميّ يوجـد في أوهـام المنافقين العليلة وخواطرهم المريضة . وكما أوجد الوهـم النفـق هيّـأه كي يسع كل الفارّيـن إليـه الداخلين فيه . والملاحظ أن ضمير المفرد في القول ﴿ لولوا إليه ﴾ يعود إلى هذا النفـق الـذي يمثل منتهى ما وصلت إليه خواطـر المنافـقين في حملهـم بعيـداً عن المؤمـنين بقيـادة المصطفـى ﷺ . ولا نملك تجاه هذه التصرفات غير السويـة من قبـل المنافـقين إلا أن نتلـو قولـه عز من قائل(١) : ﴿ فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ﴾ .

---

(١) سورة الحج ٤٦ .

((حرص المنافقين على الصدقات ، ومصارف الصدقات))

الآيات (٥٨ ـــ ٦٠)

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن
لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟
مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا
ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

سبب النزول :

عن أبي سعيد الخدري قال : بينا رسول الله ﷺ يقسم قَسماً إذ جاءه ابن ذي الخُوَيْصِرَة التميمي ، وهو حُرْقوص بن زهير أصل الخوارج فقال : اعدل فينا يا رسول الله ، فقال : ويلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ فنزلت : ومنهم من يلمزك في الصدقات ، الآية . رواه البخاري[1] .

ومنهم من يلمزك في الصدقات : ومنهم من يعيب عليك[2] ويطعن عليك في الصدقات[3] .

إذا هم يسخطون : يغضبون لأنفسهم[4] .

ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله : رضوا ما أعطاهم[5] .

وقالوا حسبنا الله : وقالوا كافينا الله[6] .

- إنا إلى الله راغبون : إنا إلى الله نرغب في أن يوسّع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وغيرها من صلات الناس والحاجة إليهم[7] .

من بين صفات المنافقين التي تؤكد فسقهم وبعدهم عن الصراط المستقيم أن منهم من يعيب المصطفى ﷺ ويطعن عليه في أمر الصدقات وشئون توزيعها زعماً منهم أن المصطفى ﷺ لا يعدل . لقد قال المصطفى ﷺ : « ومن يَعْدل إذا لم أَعْدِل ؟ » فإن أعطى

---

(١) أسباب النزول ٢٨٥ وانظر صحيح البخاري ٨٤/٦ وتفسير الطبري ١٠٨/١٠ ، ١٠٩ وتفسير ابن كثير ٣٦٣/٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٣/٢ وتفسير الطبري ١٠٨/١٠ .
(٣) تفسير الطبري ١٠٩/١٠ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣٦٣/٢ .
(٥) تفسير الطبري ١٠٩/١٠ .
(٦) تفسير الطبري ١٠٩/١٠ .
(٧) تفسير الطبري ١٠٩/١٠ .

المصطفى ﷺ المنافقين من تلك الصدقات رضوا وإن لم يعطهم منها لحكمة ارتآها عليه الصلاة والسلام إذا هم يسخطون لأنفسهم ويغضبون لمصلحتهم الذاتية وليس لله تعالى وليس للدين .

ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا ما أعطاهم الله تعالى من واسع فضله ورسوله المصطفى ﷺ الذي كان يقول : والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه إنما أنا خازن(١) ولو أنهم قالوا كافينا الله تعالى الذي نتوكل عليه جل وعلا وحده لا شريك له ، سيعطينا الله جل وعلا من خزائنه التي لا تنفد ورسوله الخازن الذي يوزّع الصدقات كما علمه الله تعالى ولو أنهم قالوا إنا إلى الله تعالى راغبون وفي فضله آملون وفي إغنائه لنا عن الصدقة طامعون لكان خيراً لهم وأقوم .

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

إنما الصدقات للفقراء والمساكين : الفقير هو المتعفّف الذي لا يسأل الناس شيئاً ، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف يتبع الناس . وقال قتادة : الفقير من به زَمانة(٢) والمسكين الصحيح الجسم(٣) .

والعاملين عليها : هم السعاة في قبضها من أهلها ووضعها في مستحقيها يعطون ذلك بالسعاية ، أغنياء كانوا أو فقراء(٤) ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة(٥) .

والمؤلفة قلوبهم : هؤلاء أقسام . فمنهم من يُعْطَى ليسلم ، ومنهم من يُعْطَى ليحسن

---

(١) تفسير الطبري ١٠/١٠٩ .
(٢) الزَّمانة : بفتح الزاي العاهة وعدم بعض الأعضاء وفقدها .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٤ وانظر تفسير الطبري ١٠/١٠٩ ، ١١٠ .
(٤) تفسير الطبري ١٠/١١١ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٥ .

إسلامه ويثبت قلبه . ومنهم من يُعْطَى لما يُرْجى من إسلام نُظَرائـه . ومنهم من يُعْطَـى ليجبي الصدقات ممن يلبه ، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد[1] .

وفي الرقاب : هم المكاتَبون يعطون منها في فكّ رقابهم[2] .

والغـارمين : هم الذيـن استدانـوا في غير معصيـــة الله ثم لم يجدوا قضاءً في عيـــنٍ ولا عَرَض[3] عن أبي سعيـد قال : أصيب رجـلٌ في عهـد رسول الله ﷺ في ثمارٍ ابتاعهـــا فكثر دَيْنه فقال النبي : تصدقوا عليه . فتصدَّق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دَيْنه ، فقـال النبـي ﷺ لغرمائه : خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك . رواه مسلم[4] .

وفي سبيل الله : منهم الغزاة الذين لا حق لهم في الدِّيوان . وعنـد الإمـام أحمد والحسن وإسحاق : والحج من سبيل الله للحديث[5] .

وابن السبيل : هو المسافر المجتاز في بلدٍ ليس معه شيء يستعين به على سفـرة فيُعْطَـى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال . وهكذا الحكم فيمن أنشأ سفراً من بلـده وليس معه شيءٌ فيُعْطى من مال الـزكاة كفايتـه في ذهابـه وإيابـه[6] والسَّبيـل الطريـق . وقيـل للضارب فيه ابن السبيل للزومه إيَّاه[7] .

فريضةً من الله : أي حكماً مقدَّراً بتقدير الله وفرضه وقَسْمه[8] .

تقصر الآية الكريمة الزكاة على هذه الفئات الثّمان التي ذكرتها في نظمها البديع وترتيب هذه الفئات العجيب . ونستطيع أن نقول إن ترتيب هذه الفئـات الثّمـان راعـى في التقـديم الفئة الأكثر حاجةً والأكثر وجوداً .

ونحن حينما ننظر إلى الفئتين الأوليين في القول : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ ونعرف أن المسكين ذو علاقة بالسكون وثبوت الشيء بعد تحرك ، ومنه سَكّان السفينة وهو ما يسكن به ، والسّكّين سُمّي لإزالته حركة المذبوح[9] نستطيع أن نفهم أن الفقير أشد حاجـةً من المسكين ، وأن نقبل مثل قول قتادة بأن الفقير من به عاهة ومن هو في حكم من به عاهـة بسبب فقد بعض الأعضاء دليلاً على شدة فقره ، وأن المسكين الصحيح الجسم ، وأن نقبـل

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦٥٢/٢ وتفسير الطبري ١١٢/١٠ .
(٢) تفسير الطبري ١١٣/١٠ .
(٣) تفسير الطبري ١١٤/١٠ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣٦٥/٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ٣٦٦/٢ .
(٦) تفسير ابن كثير ٣٦٦/٢ .
(٧) تفسير الطبري ١١٥/١٠ .
(٨) تفسير ابن كثير ٣٦٦/٢ .
(٩) مفردات الراغب الأصفهاني « سكن » ٢٣٧ .

القول بأن الفقير هو المتعفف عن السؤال مما يعمّق فقره وأن المسكين هو الذي يسأل الناس . في ضوء هذه النظرة والمقارنة بين الفقير والمسكين تبين تقدم الفقير في الاستحقاق من الصدقات يليهما العاملون في جمع هذه الصدقات لأن عملية جمع الصدقات من مصادر رزقهم . أما وقد جُمِعَت الصدقات وأخذت أُوْلى الفئات نصيبها منها فقد اتّجه الشارع الحكيم إلى الفئة التي تتسع بها دائرة الإسلام وهي فئة المؤلفة قلوبهم المستمالة للدخول في دين الإسلام المشجعة على الاستزادة من تعاليمه والتضلع من عذبه ونميره . ولما كان الإسلام قد شرّع لعتق الرقيق وتمكن بمنهجه المتدرج الحكيم من القضاء على هذا القانون العالمي آنذاك ، فإن الفئة التالية ذات علاقة بهذا المنهج الحكيم الذي قضى وحده نهائيًّا على الرّق ، وهذه الفئة فئة المكاتَبين الذين يتفقون مع مواليهم على مبلغ من المال ينالون به حرّيتهم . وحينما نقارن بين هذه الفئة المكاتَبة وبين الفئة الأخرى وهي فئة الغارمين من الأحرار ، أي الذين عليهم ديون عجزوا عن سدادها ، نتبين أن الشارع الحكيم يؤخر الأحرار في الذكر لأن استدانتهم كانت بمحض إرادتهم أما المكاتبون فمفروضٌ عليهم السَّداد وهم مضطرون له . ثم إنك حينما تنظر في فجر الإسلام مثلاً إلى هاتين الفئتين وتقارن بينهما من حيث الكثرة تتبين أن المكاتبين أكثر من الغارمين حتى قضى الإسلام على الرّق بالكليّة شكلاً ومضموناً . ولما كانت الحروب لا تدوم وكانت فترات السلم أكثر من فترات الحرب وكان الجهاد في سبيل الله تعالى مسئولية الدولة كما أنه مسئولية الأفراد فقد جاء بعد ذلك ذكر هذا المصرف من مصارف الزكاة : ﴿ وفي سبيل الله ﴾ ولا ننسى أن هذا المصرف وإن كان يبدأ بالجهاد في سبيل الله تعالى فإنه يمر بكثير من الأعمال الصالحة في سبيل الله تعالى كحج بيت الله تعالى الحرام وسفر الطاعة .

ولما كان المسافرون المنقطعون في أسفارهم أقلّ الفئات الثّمان فقد جاء ذكر ابن السبيل أخيراً ، وهو المسافر المنقطع . إنَّ من حقّه أن يُعْطَى من الزكاة ما يوصله إلى بلاده وإن كان ذا مال .

وتقرر الآية الكريمة في القول : ﴿ فريضة من الله ﴾ أن الحصر لهذه الفئات فريضة فرضها الله تعالى على عباده بشأن توزيع الزكاة الركن الثالث من أركان الإسلام ، كما تقرر في القول : ﴿ والله عليمٌ حكيم ﴾ أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ومن ذلك حقيقة هذه الفئات ، حكيم في كل شيء جل وعلا .

((من مظاهر إيذاء المنافقين النبي ﷺ وكذبهم ، وحِذْرُهُمْ من فضح ما في قلوبهم ، وكفرُهم))

الآيات (٦١ ـــ ٦٦)

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

من بين المنافقين أولئك الذين يؤذون المصطفى ﷺ بأقوالهم الساقطة ومن ذلك قولهم عن المصطفى ﷺ الذي يخفض جناحه للمؤمنين ويلين قوله لهم ، قولهم عليه لعائن الله تعالى : « هو أُذُن » يسمع كل قولٍ يقال له ويصدقه . ومن القول الذي يزعمون أن النبي ﷺ يصدّقه ادّعاؤهم أنهم لم يقولوا ما نُسب إليهم من قول وحَلِفُهُمْ على ذلك .

وإن رب العزة الذي نعت المصطفى ﷺ بأنه على خلقٍ عظيم يلقن المصطفى ﷺ ويلقن كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية الرد الذي يجيب به أولئك السفهاء . قل إن المصطفى ﷺ أُذن خيرٍ لكم لا أُذن شر ، يؤمن بالله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ويصدّقه ، ويؤمن للمؤمنين ويصدّقهم ، ويطمئنّ لهم ويبتهج بهم وبما ينقلونه له من خير وأنباء سارة ، ورحمة للذين آمنوا منكم إيماناً صادقاً .

إن لسان حال الآية الكريمة يقول : وكيف عرفتم أيها المنافقون أن النبي ﷺ يؤمن ويطمئن ويرتاح لكم وأنتم على علم ــ مثلاً ــ بمثل قول الحق جل وعلا في السورة الكريمة التي تحمل اسمه الكريم ﷺ(١) : ﴿ أم حسب الذين في قلـــوبهم مرضٌ أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم . ولتعرفنّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ .

ومن البين اختلاف الجار والمجرور في القول : ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ مما يفهم معه تضمين الجملة الأخرى بسبب حرف اللام معنى يطمئن مثلاً ويبتهج . وكما لم يشمل الاطمئنان كلام المنافقين له ﷺ لم تشملهم الرحمة الخاصة بالمؤمنين لأنهم كافرون بنص القرآن الكريم .

وإن العذاب الأليم المفهوم ضمناً نصيباً للمنافقين يصرّح به التذييل الذي يقرّر أن الذين يؤذون رسول الله ﷺ ، في أي صورة من الصور ، لهم عذاب أليم . والعــذاب الأليم عظيم بطبعه والعياذ بالله .

---

(١) سورة محمد عليه الصلاة والسلام ٢٩ ، ٣٠ .

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

سبب النزول :

عن قتادة أن رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارُنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم شرٌّ من الحمير . قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد حق ، ولأنت شرٌّ من الحمار . فسعى بها الرجل إلى نبي الله ﷺ ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال له : ما حملك على الذي قلت ؟ فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك . قال : وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدّق الصادق وكذب الكاذب . فأنزل الله في ذلك : يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين(١) .

المنافقون كاذبون في أقوالهم وفي أعذارهم وفي حلفهم . والآية الكريمة تبين أن المنافقين يحلفون بالله تعالى العظيم للمؤمنين وهم كاذبون في حلفهم . إنهم يحلفون بالله للمؤمنين بأنهم ما قالوا الذي نُسِبَ إليهم من أقوال فيها إيذاءٌ لله تعالى وإيذاء لرسوله ﷺ وإيذاء للمؤمنين . إن المنافقين يحلفون للمؤمنين ابتغاء رضا المؤمنين بينما الواجب عليهم أن يرضوا الله تعالى ويرضوا رسوله ﷺ إن كانوا مؤمنين حقاً كما يزعمون وفي رضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ رضا المؤمنين تبعاً

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله : ألم يتحقّقوا ويعلموا أنه من حادَّ الله عز وجل ، أي شاقّه وحاربه وخالفه وكان في حدٍّ والله ورسوله في حدٍّ(٢) .

في أسلوب الإنكار تسأل الآية الكريمة ألم يعلم أولئك المنافقون أنه من يحادد الله تعالى ويشاقه ويخالفه ويحادد الرسول ﷺ ويشاققه ويخالفه فأنّ له يوم القيامة نار جهنم خالداً فيها . إن ذلك هو الخزي العظيم والهوان الكبير .

---

(١) تفسير الطبري ١١٨/١٠ وانظر أسباب النزول ٢٨٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٦/٢ .

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي
قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤)
وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ
أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا
قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ
طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾

سبب النزول :

عن قتادة قال : بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات . فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك . فقال نبي الله ﷺ : احبسوا عليَّ هؤلاء الركب ، فأتاهم فقال : قلتم كذا قلتم كذا . قالوا : يا نبي الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون(١) .

تقرر الآية الكريمة الأولى أن المنافقين الذين يخوضون في الأحاديث ويلعبون يحذرون أن تُنزَّل عليهم آياتٌ من القرآن الكريم ، ويخافون أن يوحَى إليه ﷺ سورة تفضحهم على رءوس الأشهاد وتكشف عن سوءاتهم وتنبئهم بما في قلوبهم . ولما كان التمادي في الأقوال والحذر من الافتضاح نوعاً من الاستهزاء والسخرية فقد جاء في الآية الكريمة القول : ﴿ قل استهزءوا إن الله مُخرجٌ ما تحذرون ﴾ وهل هذه الآية الكريمة إلا نوع من الإخراج والإظهار لما يحذر المنافقون خروجه وظهوره ؟

أما وقد أخرج الله تعالى ما خشي المنافقون خروجه فإن المصطفى ﷺ يسألهم عن هذه الأقوال التي هلكوا بسببها . وهنا تقرر الآية الكريمة الثانية أن المنافقين لم يستطيعوا هذه المرة أن يكذبوا أو أن يحلفوا زوراً ويأتوا فجوراً . لقد اعتذر المنافقون بقبيح العذر المشابه من القبح لأقوالهم . إنهم يستهزئون بدين الإسلام وبرسول الإسلام وبأمة الإسلام لمجرد الخوض في أودية الكلام وتزجية الفراغ باللعب واللهو . ويكون في الآية الكريمة السؤال الإنكاري

---

(١) تفسير الطبري ١١٩/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٦٧/٢ وأسباب النزول ٢٨٨ .

المفحم لهم الفاضح لسوءاتهم الكاشف لعيوبهم : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ !

ويكون في الآية الكريمة الثالثة الحكم الذي يستحقه الماضون في النفاق منهم : ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ ويكون التهديد بالعذاب الشديد لهؤلاء المستمرين في غيهم وضلالهم ، ويكون في الوقت ذاته فتحٌ لباب التوبة والأمل في عفو الله تعالى وقبول توبة التائبين إلى الله تعالى توبةً نصوحاً : ﴿ إن نعف عن طائفةٍ منكم نعذّب طائفةً بأنهم كانوا مجرمين ﴾ وهكذا تسبق رحمة الله تعالى غضبه ، والمعروفُ أن أكثر المنافقين تابوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً . ألسنا مع سورة التوبة ؟ بلى .

((من صفات المنافقين وعقابهم
ومن صفات المؤمنين وثوابهم))
الآيات (٦٧ ــ ٧٣)

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

نسوا الله فنسيهم : تركوا الله أن يطيعوه ويتّبعوا أمره فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته[١] .

تقرر الآية الكريمة أن المنافقين والمنافقات كأبعاض الشيء الواحد[٢] في إبطان الكفر وإظهار الإيمان . إنهم يأمر بعضهم بعضاً ويأمرون الآخرين بالمنكر شرعاً وعقلاً من كفر بالله تعالى وبرسوله ﷺ وصدٍّ عن سبيل الله تعالى ، وينهون عن المعروف شرعاً وعقلاً من إيمانٍ بالله تعالى وتصديق برسوله ﷺ وبالقرآن الكريم وبدين الإسلام وكل خير ، ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله تعالى وعن فعل الخيرات . والمعروف أن القبض خلاف البسط ، وأن المراد بقبض اليد قبض الكفّ أساساً التي يكون بها الإنفاق والعمل المتقن أساساً . وحينما يقبض المنافقون أيديهم عن الخيرات هم في المقابل يبسطونها في الشرور وفي كل ما يؤذي الإسلام والمسلمين . وفي مقابل ترك المنافقين طاعة الله تعالى تركهم جل وعلا من لطفه ووصفوا بأنهم الفاسقون الخارجون من الصراط المستقيم إلى طرق الضلالة وسبل العَماية : ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ .

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

هي حسبهم : أي كفايتهم في العذاب[٣] .

بسبب فسق المنافقين وخروجهم من الصراط المستقيم إلى طرق الضلالة يعدهم الله

---

(١) تفسير الطبري ١٠/١٢١ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٨ .

تعالى ، ووعده الحق ، ويعد المنافقات والكفار الذين يشاركونهم في صفة الكفر بالله تعالى وبرسوله ﷺ نار جهنم خالدين فيها لا يخفف عنهم من عذابها ولا هم يُنْصَرون بصرفه عنهم أو بإخراجهم منها . إن نار جهنم هي كافيتهم عذاباً وعقاباً على كفرهم(١) وقد لعنهم الله تعالى وطردهم وأبعدهم من رحمته . إن للمنافقين والكافرين عذاباً أليماً مقيماً في نار جهنم .

ومن البيِّن تقديم المنافقين في الذكر على الكافرين وفي العذاب ، على عادة القرآن الكريم ، بسبب عراقتهم في الكفر واشتراكهم في هذه الصفة السيئة ، وبسبب انفراد المنافقين بادعاء الإيمان والتغلغل في أعماق المسلمين ابتغاء الفتنة والفساد .

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

فاستمتعوا بخلاقهم : فتمتعوا بنصيبهم وحظهم من دنياهم ودينهم ورضوا بذلك من نصيبهم في الدنيا عوضاً من نصيبهم في الآخرة(٢) .

تخاطب الآية الكريمة المنافقين ومن لفَّ لفهم من الكافرين قائلة : أنتم أيها المنافقون(٣) في كفركم وعتوكم كالذين من قبلكم من المنافقين والكافرين . لقد كانوا أشد منكم قوةً وعتاداً ، وأكثر منكم أموالاً وأولاداً ، فاستمتعوا في دنياهم بنصيبهم الموفور من نعيم الدنيا الزائل ، وبنصيبهم المبخوس من الدين ، لأن الحياة الأولى كانت هدفاً لهم وغاية . وها أنتم أولاء تستمتعون بنصيبكم الموفور من الدنيا المبخوس من الدين ، وذلك على غرار السابقين من أمثالكم ، لأن بعضكم من بعض ، ولأن أبعاضكم يشبه بعضها بعضاً . وكما أشبه بعضكم بعضاً في الأخذ بنصيبٍ موفور من الحياة الدنيا متاع الغرور أشبه بعضكم بعضاً بالخوض في

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/١٢١ .
(٢) تفسير الطبري ١٠/١٢١ .
(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٣٣٠ والجلالين .

لغو الحديث وباللعب والاستهزاء بآيات الله تعالى وبرسوله ﷺ وبالمؤمنين وبدين الإسلام لله رب العالمين .

إن أولئك قد حبطت أعمالهم الصالحة التي لم يريدوا بها وجه الله تعالى وذهبت هباءً في الدنيا والآخرة فلا ثواب لها إلا النار لأنها كانت فيما يسخط الله ويكرهه(1) وإن أولئك هم الخاسرون في تجارتهم حقاً المغبونون في صفقتهم يقيناً ، لأنهم أمسكوا بالسراب وحق عليهم العذاب . وبسبب تشابه المنافقين والكافرين سابقاً ولاحقاً في الصفات السيئة تشابهوا في سوء المصير والعياذ بالله . فعلى الأحياء أن يتداركوا الأمر قبل فوات الأوان وأن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً وإلا كان الأخذ شديداً والعذاب أليماً .

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

والمؤتفكات : هم قوم لوط ، قيل إنها كانت قريات ثلاثاً فجمعت لذلك ، ولذلك جمعت بالتاء على قول الله : والمؤتفكة أهوى(2) بمعنى المنقلبة بهم أرضهم فصار أعلاها أسفلها إذ عصوا رسولي لوطاً وكذبوا ما جاءهم به من عندي من الحق(3) .

في أسلوب الإنكار تسأل الآية الكريمة ألم يأت أولئك المنافقين عن طريق القرآن الكريم وما أوحى الله تعالى به إلى أشرف المرسلين من سنة مطهرة نبأ الذين من قبلهم ، ألم يصلهم فعلاً الخبر المهم والنبأ الجلل المتعلق بأولئك الطغاة في قديم الزمان البغاة في غير ما مكان وهم قوم نوح عليه السلام الذين جاء عنهم ــ مثلاً ــ قوله عز من قائل(4) : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آيةً للعالمين ﴾ والمعروف أن نوحاً عليه السلام الأب الثاني للبشرية وأول رسل الله تعالى .

---

(1) تفسير الطبري ١٢٢/١٠ .
(2) تفسير الطبري ١٢٣/١٠ .
(3) تفسير الطبري ١٢٢/١٠ .
(4) سورة العنكبوت ١٤ ، ١٥ .

ومن هؤلاء الأقوام عادٌ قوم هود عليه السلام وثمود قوم صالح عليه السلام . وكانت عاد تسكن الأحقاف بجنوب الجزيرة العربية[1] والأحقاف كثبان الرمال ، وكانت ثمود تسكن العلا أو مدائن صالح بشمال الجزيرة العربية . ومما جاء في حق عاد وثمود وفي عذابهما قوله عز من قائل في سورة الحاقة[2] : ﴿ الحاقّة . ما الحاقّة . وما أدراك ما الحاقّة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصرٍ عاتية . سخَّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ والمراد بالطاغية التي أهلك الله تعالى بها ثمود الصيحة الواحدة التي طغت على غيرها من الصيحات . جاء في سورة الذاريات[3] قوله تعالى : ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾ وجاء في سورة القمر[4] قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنّذر . فقالوا أبشراً منا واحداً نتّبعه إنَّا إذاً لفي ضلال وسعر . أألقِي الذِّكر عليه من بيننا بل هو كذَّاب أشر . سيعلمون غداً من الكذَّاب الأشر . إنَّا مرسلو الناقةِ فتنةً لهم فارتقبهم واصطبر . ونبِّئهم أن الماء قسمةٌ بينهم كلُّ شِرْبٍ محتَضَر . فنادَوْا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابي ونذر . إنَّا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كهشيم المحتظر[5] وقد يسَّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾ .

ومن هؤلاء الأقوام قوم إبراهيم عليه السلام وملكهم نُمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله[6] وهو الذي حاجَّ إبراهيم عليه السلام في ربِّه جل وعلا على نحو ما بيَّنت هذه الآية الكريمة من سورة البقرة[7] : ﴿ ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربِّي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت . قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشَّمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهِتَ الذي كفر . والله لا يهدي القوم

(١) بين عمان إلى حضرموت واليمن كله تفسير القرطبي ٦٧٣٧ .
(٢) الآيات ١ ــ ٨ .
(٣) الآيات ٤٣ ــ ٤٥ .
(٤) الآيات ٢٣ ــ ٣٢ .
(٥) المحتظر هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشّوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع . وما سقط من ذلك فداسته هو الهشيم . الجلالين .
(٦) تفسير ابن كثير ٣٦٨/٢ .
(٧) الآية ٢٥٨ .

الظّالمين ﴾ .

ومن هؤلاء الأقوام أصحاب مدين قوم شعيب عليه السلام الذي يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته[1] ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز[2] وقد أخذهم عذاب يوم الظّلّة ، وهم أصحاب الأيكة ، غيضة[3] شجر قرب مدين[4] قال تعالى في سورة الشعراء[5] : ﴿ كذّب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيبٌ ألا تتّقون . إنّي لكم رسولٌ مبين . فاتّقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على ربِّ العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . واتّقوا الذي خلقكم والجبلّة الأوّلين . قالوا إنما أنت من المسحّرين . وما أنت إلا بشرٌ مثلنا وإن نظنّك لمن الكاذبين . فأسقِطْ علينا كِسَفاً من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربّي أعلم بما تعملون . فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظُّلّة . إنه كان عذاب يومٍ عظيم . إنّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين . وإنّ ربّك لهو العزيز الرحيم ﴾ وعذاب يوم الظلة سحابة أظلّتهم بعد حرٍ شديدٍ أصابهم فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا[6] .

ومن هؤلاء الأقوام قوم لوطٍ عليه السلام الذين كانوا يأتون الذُّكران من العالمين فقلب الله تعالى قراهم رأساً على عقب . جاء في سورة الشعراء[7] قوله تعالى : ﴿ كذّبت قوم لوطٍ المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوطٌ ألا تتّقون . إنّي لكم رسولٌ أمين . فاتّقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلّا على ربّ العالمين . أتأتون الذّكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربّكم من أزواجكم بل أنتم قومٌ عادون . قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكوننّ من المُخْرَجين . قال إنّي لعملكم من القالين . ربّ نجّني وأهلي ممّا يعملون . فنجّيناه وأهله أجمعين . إلّا عجوزاً في الغابرين . ثم دمّرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين . إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين . وإنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم ﴾ .

إن الآية الكريمة تبين في تذييلها أن أولئك الأقوام قد أتتهم رسلهم بالآيات البيّنات والحجج الواضحات فكذّبوا فانتقم الله تعالى منهم وما كان جلّ وعلا ليظلمهم بحذف حسنةٍ أو بإضافة سيئة ولكن كانوا يظلمون أنفسهم بالإشراك مع الله تعالى سواه وبتكذيب الرسل .

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٣١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٣١ .
(٣) الغيضة : مجتمع الشجر في مغيض ماء .
(٤) الجلالين .
(٥) الآيات ١٧٦ ــ ١٩١ .
(٦) الجلالين .
(٧) الآيات ١٦٠ ــ ١٧٥ .

إن جملـة أتى في القـول في صدر الآية الكـريمة : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذيـن من قبلهـم ﴾ تشير إلى بعد الزّمـان . وإن جملـة أتى في القـول في صدر الـنصف الآخر من الآية الكـريمة : ﴿ أتتهم رسلهم بالبيِّنات ﴾ تشير إلى بعد المكان .

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

بعـد أن بيّن السيـاق بعض صفـات المنافـقين السيئـة وعقـابهم تحول إلى بيـان بعض صفات المؤمنين الحسنة وثوابهم . ويتبين من النظرة الأولى أن بعض الصفـات المذكـورة في حقّ المؤمنين مخالفة لصفات المنافـقين تمام المخالفـة ، هذا إلى أن كل صفـة في حق أحـد الفريـقين دليل على وجود الصفة المغايرة في حق الفريق الآخر .

وامتداداً للاختلاف بين الفريقين في الصفـات يجيء الاختـلاف الطَّفيـف بين تعبيريـن عن صفتين وعن معنيين في حق الفريقين . جاء عن المنافقين القول : ﴿ المنافقون والمنافقـات بعضهم من بعض ﴾ وجاء عن المؤمنين القول : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ وإن القول عن المنافقين ينبه إلى أن المنافقين في الصفات السيئـة يبـدون وكـأنهم أبعـاض شيء واحد ، وكأن بعضهم ذريةُ بعضهـم الآخر فهـم متشابهون في هذه الصفـات السيئـة وكـأنهم يتوارثونها . وإن هذا المعنى نستطيع أن نفهمـه كذلك في مجال الخيرات مما جاء عن اصطفائـه جل وعلا آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العـالمين ، وذلك في سورة آل عمـران[1] قال تعالى : ﴿ إن الله اصطفـى آدم ونوحـاً وآل إبـراهيم وآل عمـران على العـالمين . بعضهـم من بعض . والله سميع عليم ﴾ .

أما القول عن المؤمنين : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليـاء بعض ﴾ فإنـه يشير إلى تعاون المؤمنين على البر والتقوى وعلى استباقهـم الخيرات وكـأنهم بنيـان مرصوص وجسدٌ واحـد لأنهم إخوةٌ في الإيمان . وإن هذه المعاني الخيِّرة يشير إليها مثل هذا الحديث الصحيح : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وشبَّك ﷺ بين أصابعه[2] والحديث الصحيـح أيضاً :

(١) الآية ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٩ .

مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر[1] .

إن هؤلاء المؤمنين ـــ وكذلك المؤمنات ـــ يأمرون بالمعروف شرعاً وعقلاً وينهون عن المنكر شرعاً وعقلاً ، والمعروف أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مقوِّمات هذه الأمة المسلمة ومن مقومات كونها خير أمة أخرجت للناس . ثم إن هؤلاء المؤمنين يقيمون الصلاة بأركانها وواجباتها وكل مقوماتها باعتبار الصلاة أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين و يتجه المؤمنون بإقامتها مباشرة إلى الله تعالى ، بينما الزكاة التي يؤتيها المؤمنون لمستحقيها يتّجهون بها إلى الله تعالى مروراً بالإنسان .

والمؤمنون وراء كل ذلك يطيعون الله تعالى وحده لا شريك له طاعةً مطلقةً في كل ما أمر به ونهى عنه ، ويطيعون رسوله ﷺ كذلك طاعة مطلقة لأنه عليه الصلاة والسلام هو المبلّغ عن ربه جل وعلا .

أما ثواب المؤمنين والمؤمنات الطائعين المخبتين فإنها رحمة الله تعالى التي ستشملهم في الحياتين الأولى والآخرة . ويلاحظ أن حرف السين الدال على القرب هو الذي يجيء في القول : ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ مما يفهم منه رحمة الله تعالى التي ستسع المؤمنين في الأولى ، وهذه هي الرحمة العاجلة ، وفي الآخرة ، وهذه هي الرحمة الآجلة ، وقد جاء عن رحمة الله تعالى الخاصّة بالمؤمنين يوم القيامة قوله تعالى[2] : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ .

وتقرر الآية الكريمة في ختامها أن الله سبحانه وتعالى هو العزيز في ملكه الحكيم في صنعه .

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

من مظاهر رحمة الله تعالى بالمؤمنين والمؤمنات وعده جل وعلا لهم ، ووعده الحق ، بالثواب العظيم ، والخير العميم ، والفضل الكبير . إن الله سبحانه وتعالى يعد المؤمنين

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٦٩/٢ .
(٢) سورة الأحزاب ٤٣ .

والمؤمنات ، ويلاحظ النص على المؤمنين والمؤمنات بصريح اللفظ ، كما يلاحظ الجمع بينهما على غرار الآية الكريمة السابقة ، إن الله سبحانه وتعالى يعد بالجنات التي تجري من تحتها شجرها الأنهار ، والتي سوف يخلد فيها كلٌّ من الفريقين ، كما يعدهم جل وعلا بالمساكن الطَّيِّبة في جنات الإقامة الدائمة ، وبما هو أكبر من كل ذلك مما يعتبر وحده دون سواه الفوز العظيم ، ألا وهو رضوان الله تعالى الذي لا سخط بعده ، والذي هو أكبر من كل نعيم ، وأعظم من كل ثواب . روى الإمام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبَّيك وسعديك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضي يا ربّ وقد أعطيتنا ما لم تُعْط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون يا ربّ ، ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً . أخرجاه من حديث مالك(١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٧٣)

يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم : قال ابن عباس : الكفار بالقتال ، والمنافقين أن تغلظ عليهم بالكلام(٢) .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، وإن كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية تبعٌ له عليه الصلاة والسلام في ذلك ، بأن يجاهد الكفار والمنافقين بكل وسائل الجهاد الممكنة والمناسبة وأن يغلظ عليهم وأن يكون فظًّا معهم . وإن هذه الوسائل المختلفة تشمل كل أنواع السلاح مروراً بالسيف والسنان ، وكل وسائل البيان مروراً بالقلم واللسان .

إن الله سبحانه وتعالى يسلط رسله على من يشاء وقد سلط حبيبه المصطفى ﷺ على الكفار والمنافقين في هذه الحياة الأولى ، كما سلط الأمة المؤمنة . أما في الحياة الأخرى فإن مأوى القوم جهنم ، وبئس المصير والمآل جهنم . والعياذ بالله .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٧٠ وتفسير الطبري ١٠/١٢٦ .
(٢) تفسير الطبري ١٠/١٢٦ .

((المنافقون يحلفون كذباً ، وينقضون عهودهم ، ويسخرون من المؤمنين وعقابهم))

الآيات (٧٤ ـــ ٨٠)

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

سبب النزول :

نزلت الآية الكريمة في مناسبتين اثنتين أولاهما إيذاء المنافقين المصطفى ﷺ بألسنتهم وبالطعن في الدين، وأخراهما همّ المنافقين حينما عاد ﷺ من غزوة تبوك أن ينفرّوا راحلته ويطرحوه من على العقبة، وهي المرقى الصّعب من الجبال، في ليلةٍ تسمى ليلة العقبة، بسبب هذه المحاولة الدنيئة.

قال الضَّحَّاك : خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فكانوا إذا خلا بعضهم إلى بعض سبُّوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا في الدين. فَنَقَلَ ما قالوا حذيفة إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم رسول الله ﷺ : يا أهل النِّفاق، ما هذا الذي بلغني عنكم ؟ فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية إكذاباً لهم(١).

وقال الضحاك : همّوا أن يدفعوا النبي ﷺ ليلة العقبة، وكانوا قوماً قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ وهم معه. فجعلوا يلتمسون غرَّته حتى أخذ في عقبة. فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم، وكان ذلك ليلاً. قالوا : إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي. وكان قائده في تلك الليلة عمَّار بن ياسر، وسائقه حذيفة. فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل. فالتفت فإذا هو بقوم متلثمين، فقال : إليكم إليكم يا أعداء الله، فأمسكوا، ومضى النبي عليه السلام حتى نزل منزله الذي أراد، فأنزل الله تعالى قوله : وهمّوا بما لم ينالوا(٢) والمعنى : وهمّوا بما لم ينالوا من الفتك بالنبي ﷺ(٣) روى مسلم عن عمار بن ياسر قال : أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال : في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة

---

(١) أسباب النزول ٢٨٩ .

(٢) أسباب النزول ٢٨٩ .

(٣) الجلالين .

ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط[١] ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبَيْلة[٢] سراجٌ من نار تظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم . ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من تعيين جماعة من المنافقين ، وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره . والله أعلم . وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة[٣] .

وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله : ما أنكروا على رسول الله ﷺ شيئاً إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله[٤] .

تقرر الآية الكريمة أن هؤلاء المنافقين يحلفون بالله تعالى كاذبين بأنهم ما قالوا الأقوال البذيئة التي جرت على ألسنتهم والتي سمعها منهم بعض الصحابة ونقلها إلى المصطفى ﷺ . وإن رب العزة الذي أحاط بكل شيء علماً ، والذي لا يظلم مثقال ذرة ، والذي سمع من فوق سبع سماوات قول التي تجادل المصطفى ﷺ في زوجها لَيُقْسِم بأن المنافقين قد قالوا كلمة الكفر بسبّ المصطفى ﷺ والطَّعن في الدِّين وكفروا بعد إسلامهم . والمعروف أن المصطفى ﷺ لمَّا سئل عن الإسلام والإيمان فَسَّر الإسلام بالأعمال الظاهرة ، والإيمان بالأصول الخمسة[٥] ويلاحظ أن الآية الكريمة تنص على أن هؤلاء المنافقين قد كفروا بعد إسلامهم وليس بعد إيمانهم مما هو دليل على وقوفهم بإعلان الإسلام عند الأعمال الظاهرة[٦] ثم إن هؤلاء المنافقين الكاذبين في حلفهم همّوا بقتل المصطفى ﷺ الذي لم ينالوه رغم محاولتهم المستميتة لقتله ﷺ ولكن رب العزة قد عصم المصطفى ﷺ من الناس وقد قال عز من قائل[٧] : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ .

---

(١) يلج بمعنى يدخل . والجمل هو الذي له أربع قوائم : ابن الناقة أو زوج الناقة . وقيل الحبل الغليظ . وسم الخياط : ثقب الإبرة .

(٢) الدُّبيلة ، بالتصغير : داءٌ في الجوف أو خُرَّاج ودمَّل يظهر فيه . والداهية . انظر اللسان « دبل » .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٧٣/٢ وذكر ابن كثير أسماء هؤلاء المنافقين انظر ٣٧٣/٢ .

(٤) تفسير الطبري ١٢٩/١٠ .

(٥) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية ٢٤٦ الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ المكتب الإسلامي . دمشق . بيروت . والأصول الخمسة أركان الإسلام ٢٤٥ .

(٦) انظر كتاب الإيمان ٢٦٠ .

(٧) سورة المائدة ٦٧ .

وما هو الشيء الذي كرهه المنافقون في المصطفى ﷺ حتى حرصوا على الفتك به ﷺ فداه أبي وأمي ونفسي ﷺ ؟ الذي كرهوه منه ﷺ أن أغناهم الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بعد فقرٍ من فضله جل وعلا ! وهل الإغناء بعد الفقر والإعزاز بعد الذل يوجبان حمد من كان بفضل الله تعالى السبب في الغنى والعز أو ذمه فضلاً عن الإساءة إليه أو قتله ! إن هذا هو منطق المنافقين الحسودين الحقودين على عادة كل حاسد وحاقد .

وإن رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه والتي وسعت كل شيء وسعت هؤلاء المنافقين فيفتح رب العزة لهم باب التوبة النصوح . وتبين الآية الكريمة أن المنافقين إن يتوبوا يك ذلك خيراً لهم وإن يستمروا في إعراضهم يعذبهم الله تعالى عذاباً أليماً في الدنيا بالذل والهوان وفي الآخرة بالعذاب العظيم الأليم . ولما كان المنافقون لا يؤمنون بالآخرة كالكافرين ، وكانوا يعتبرون الحياة الدنيا نهاية المطاف وغاية المنى فإن الآية الكريمة تقرر في تذييلها أن المنافقين ليس لهم في هذه الأرض من وليٍّ يتولى شئونهم ويرعى مصالحهم ، ولا نصير يصرف عنه عذاب الله تعالى .

وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ
وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟
بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ
إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟
يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

سبب النزول :

نزلت الآيات الكريمات في رجل من الأنصار سأل المصطفى ﷺ أن يدعو الله تعالى بأن يهبه مالاً كثيراً وعاهد الله تعالى على أن يدفع من ذلك المال حق الله تعالى .. وليس ثمة اتفاق بين العلماء على اسم هذا الرجل من الأنصار(١) واستجاب الله تعالى دعاءه ﷺ .

---

(١) انظر أسباب النزول ٢٩٠ هامش رقم ١ في هذا الاختلاف نقلاً عن الإصابة لابن حجر ١/١٩٩ ـــ ٢٠٠ وانظر تفسير الطبري ١٠/١٣٢ .

وشغل المال الرجل عن صلاة الجماعة وبخل بالزكاة « وقال : ما هذه إلا جزية . ما هذه إلا أخت الجزية »(١) ثم جاء بالزكاة إلى النبي ﷺ فقال : « إن الله قد منعني أن أقبل منك صدقتك ، فجعل يحثو التراب على رأسه »(٢) وكما رفض ﷺ قبول صدقته رفض قبولها أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين . ومات الرجل في خلافة عثمان رضي الله عنه(٣) .

فأعقبهم : أي فصيَّر عاقبتهم(٤) .

سِرّهم : الذي يسرّونه في أنفسهم من الكفر به وبرسوله(٥) .

ونجواهم : إذا تناجوا بينهم بالطعن في الإسلام وأهله وذكرهم بغير ما ينبغي أن يذكروا به(٦) .

تبين الآية الكريمة الأولى أن من المنافقين من عاهد الله تعالى لئن أعطاهم جل وعلا من فضله ووهبهم من جوده فإنهم سيصَّدَّقون ويؤتون زكاة أموالهم وسيكونون من الصالحين الذين يراقبون الله تعالى في السر والعلن .

وتبيِّن الآية الكريمة الثانية أن أولئك المنافقين لما أعطاهم الله تعالى من خزائن فضله التي لا تنفد بخلوا بهذا المال الذي أعطاهم الله تعالى إياه وجعلهم مستخلفين فيه ، ومنعوا أصحاب الصدقات ما فرضه الله تعالى حقاً لهم في أموال الأغنياء : ﴿ وتولوا وهم معرضون ﴾ وانصرفوا عن طاعة الله تعالى وهم مستكبرون .

وتبين الآية الكريمة الثالثة العاقبة الوخيمة لأولئك المنافقين المعرضين المستكبرين وتقرر أن الله سبحانه وتعالى جعل عاقبة أولئك المنافقين ومصيرهم نفاقاً متمكناً من قلوبهم مستقراً في أعماقهم بسبب إخلافهم الله تعالى ما وعدوه من إيتاء للزكاة إن أغناهم الله تعالى عن أخذ الصدقات ومن مراقبة لله تعالى في السر والعلن شكراً لله تعالى على نعمه وآلائه ، وبسبب كذبهم الذي اعتادوه ونفاقهم الذي استمرأوه .

---

(١) أسباب النزول ٢٩١ .
(٢) أسباب النزول ٢٩٢ .
(٣) انظر أسباب النزول ٢٩٠ وتفسير الطبري ١٣٠/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٧٤/٢ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير الطبري ١٣٤/١٠ .
(٦) تفسير الطبري ١٣٤/١٠ .

وتسأل الآية الكريمة الرابعة المنافقين في أسلوب الإنكار : ألم يعلم أولئك المنافقون أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يسرّونه في أنفسهم وما توسوس به نفوسهم ، ويعلم ما يتناجون به بينهم حينما يخلو بعض هؤلاء الشياطين إلى بعض . ويلاحظ أن الذي يسره الإنسان في نفسه لا يعلمه أحدٌ من البشر سواه وقد أحاط الله تعالى به علماً ، وأن ما يناجي به الإنسان غيره يلي ما يسره في نفسه ويضمره وينويه في درجة علم الآخرين به ، لأن الآخرين يشاركونه المناجاة ويعلمونها . ومن باب الأولى أن يحيط الله تعالى بالمناجاة علماً ، وهي ضربٌ من القول ، بعد أن أحاط جل وعلا بالنوايا علماً . وإذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم النجوى و ﴿ يعلم السرّ وأخفى ﴾[1] فمن باب الأولى أن يحيط جل وعلا بما وراء ذلك مما يقل في الخفاء عن درجة المناجاة والسر من وسوسة النفس وخاطر القلب وما إلى ذلك .

لقد عبَّرت الآية الكريمة عن إحاطة الله تعالى علماً بما وراء السر والنجوى بأنه جلا وعلا : ﴿ علَّام الغيوب ﴾ ومن البين أن علام صيغة مبالغة ، وأن الغيوب يشمل كل غيب فسبحانه جل وعلا لا رب غيره ولا معبود بحق سواه .

ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

سبب النزول :

روى البخاري ومسلم عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل[2] على ظهورنا فجاء رجل فتصدَّق بشيء كثير فقالوا : مرائي . وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا : إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا فنزلت : الذين يلمزون المطوّعين . الآية[3] ومن بين الذين تصدقوا بمال كثير عبد الرحمن بن عوف فقد تصدق بأربعة آلاف درهم وهي

---

(١) سورة طه ٧ .

(٢) نحامل : نطلب من الناس أن نحمل لهم أغراضهم بالأجرة لنكسب ما نقتات به ونتصدق منه .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٧٥/٢ وصحيح البخاري ٨٤/٦ وأسباب النزول ٢٩٣ وتفسير الطبري ١٦/١٠ .

نصف ماله[1] وعاصم بن عَدِي بن العجلان فقد تصدق بمائة وسق من تمر[2] ومن بين الذين تصدقوا بمال قليل أبو عقيل الأنصاري الذي تصدق بصاع من تمر ، وقد قال : يا رسول الله ، بتّ ليلتي أجرّ بالجرير[3] الماء حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما لأهلي وأتيتك بالآخر . فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات[4] .

الذين : اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ . ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره هم[5] .

يلمزون : يعيبون[6] ويطعنون وينتقصون[7] .

المطوعين : المتنفّلين[8] .

من صفات المنافقين السيئة ، إضافة إلى الصفات السابقة ، أنهم يبخلون ويأمرون الناس بالبخل عن طريق الحرب النفسية التي يشنونها على المتصدقين بالكثير أو بالقليل بأن يلمزوهم ويعيبوهم وينتقصوهم . فإن أعطى المؤمنون كثيراً قالوا مراءون . وإن أعطوا قليلاً ، وذلك منتهى جَهْدهم وطاقتهم ، قالوا إن الله غنيٌّ عن صدقاتهم . إن الآية الكريمة تصف المنافقين بأنهم يعيبون كل متصدق ، وإذا كانت قد سكتت عن الذين تصدّقوا بالكثير دليلاً على حقارة المنافقين الذين حكموا على هذا الفريق من المتصدقين بالرياء ، وهذا الحكم ليس من حق مخلوق فكيف بالمنافقين ، فإنها قد عذرت الذين تصدقوا بالقليل وذلك في القول : ﴿ والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ بمعنى والذين لا يجدون من المال إلا طاقتهم وهو مال قليل كصاع من تمر ، ولكن ثوابه كبير عند الله تعالى ، ومن ثم يستحق هؤلاء المتصدقون بالقليل الشكر والثناء من عباد الله تعالى وليس السخرية من قبل المنافقين .

ولما كان الذنب الذي ارتكبه المنافقون هو السخرية من المؤمنين . والسخرية منهيٌّ عنها بنص القرآن الكريم ، فإن عقاب الله تعالى للمنافقين جاء مستعملاً لفظ الذنب ذاته :

---

(١) أسباب النزول ٢٩٣ وتفسير ابن كثير ٣٧٥/٢ وتفسير الطبري ١٣٥/١٠ .
(٢) أسباب النزول ٢٩٣ وتفسير ابن كثير ٣٧٥/٢ وتفسير الطبري ١٣٦/١٠ .
(٣) الجرير : الحبل .
(٤) أسباب النزول ٢٩٣ وتفسير ابن كثير ٣٧٥/٢ وتفسير الطبري ١٣٤/١٠ .
(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٤٤/٥ .
(٦) الجلالين .
(٧) تفسير الطبري ١٣٤/١٠ .
(٨) الجلالين .

﴿ الذين يلمزون المطّوّعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جُهْدَهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ .

إن المنافقين يسخرون من المؤمنين ظنًّا من المنافقين أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل صدقتهم القليلة فيخيِّب الله تعالى آمالهم ويقلب سخريتهم عليهم فيثيب المتصدقين ، وتكتب ملائكة العذاب سخرية المنافقين ، ويحملون إثماً كبيراً وبالتالي سيكون لهم يوم القيامة عذاب أليم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً .

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

الأمر في الآية الكريمة من الرب العظيم جل وعلا إلى الحبيب المصطفى ﷺ يراد به الخبر ومعناه إن استغفرت لهم يا محمد أو لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم[1] إن المصطفى ﷺ سواء استغفر للمنافقين أم لم يستغفر فإن الله سبحانه وتعالى لن يغفر للمنافقين . بل إن المصطفى ﷺ لو استغفر الله سبحانه وتعالى للمنافقين سبعين مرة فإن الله سبحانه وتعالى لن يغفر لهم ذنوبهم ولن يعفو عن سيئاتهم . ويصح أن يراد بالسبعين معنى هذا الرّقم ، وكأنّ الاستغفار يصحّ أن يقبل بعد السّبعين مرة من الاستغفار لهم . وهذا المعنى يمكن أن يفهم من هذا الحديث . قال الشعبي : لما ثقل عبد الله بن أُبَيّ انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال : إن أبي قد احْتُضِر فأحب أن تشهده وتصلي عليه ، فقال له النبي ﷺ : ما اسمك ؟ قال : الحُباب بن عبد الله . قال : بل أنت عبد الله بن عبد الله . إن الحُباب اسم شيطان . فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عَرِق وصلى عليه فقيل له : أتصلّي عليه ؟ فقال : إن الله قال : إن تستغفر لهم سبعين مرة ، ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين[2] كما يصح أن يراد بالسبعين مجرد الكثرة وليس حقيقة العدد ، فقد جرت عادة العرب أن يعبِّروا بالرقم سبعة عن الكثرة في مرتبة الآحاد ، وبالرقم سبعين عن الكثرة في مرتبة العشرات ،

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/١٣٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٧٦ وانظر صحيح البخاري ٦/٨٥ .

وبالرقم سبعمائة عن الكثرة في مرتبة المئات . والمعروف أن القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين لم يلو للغة العربية عنقاً .

وتبين الآية الكريمة السّبب في عدم قبول الحق جل وعلا الاستغفار للمنافقين ، وهو أنهم كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ . ولما كان المنافقون قد آثروا العمى على الهدى فقد زادهم الله تعالى عمًى إلى عماهم وقد عبَّر عن ذلك بالقول في ختام الآية الكريمة : ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ والفسق بمعنى الخروج عن الصراط المستقيم إلى ضريق الضلال ومهاوي الردى .